

صلح الحديبية

استعد المسلمون لخوض معركة غير متكافئة مع مكة رغم أنهم لا يملكون من السلاح إلا السيوف، وإذا بسهيل بن عمرو يركب بعيره متجها صوب المسلمين.. وكان سهيل ذكيا واسع الحيلة والدهاء، وقد جاء يفاوض النبي، وينهى هذا الوضع المتفجر القابل للاشتعال بين مكة والمسلمين، وطلب أن يعود النبي وأصحابه إلى المدينة، ويؤجلوا دخول مكة للعام القادم، على أن تخلو لهم مكة لأيام ثلاثة يؤدون العمرة، وأن تعقد هدنة بين مكة والنبي، ويكون للناس حرية الدخول في حلف النبي أو مع مكة، على شرط أن يرجع المسلمون من يدخل الإسلام من أهل مكة ويهاجر إلى المدينة مادام دخل الإسلام دون إذن وليه.. وأن من يرجع إلى مكة من المسلمين لا ترده مكة إليهم!

وقبل النبي هذه الشروط، بينما ملأ الغضب قلوب المسلمين.. كيف يردون من يسلم إلى أهل مكة؟.

وكيف لا ترد قريش مسلما عاد إلى مكة؟..

وكيف يعودون إلى المدينة وهم على مسيرة يوم واحد من مكة ولا يدخلون بيت الله الحرام..

وكيف تنص المعاهدة على أن المسلمين عندما يأتون للعمرة في العام القادم لا يأتون إلا بالسيوف فقط..

ثم يبلغ الضيق بالمسلمين مبلغا عظيما، وهم يتذكرون مشهد النبي عليه الصلاة والسلام، وكان قد استدعى على بن أبي طالب ليكتب اتفاق الصلح.. وأمر عليا أن يكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم»..

ويرفض سهيل ذلك، ويطلب أن يكتب كما تعود العرب باسمك اللهم .
ويوافق الرسول !

وأمر النبي عليا أن يكتب:

- « هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو » ..

ويرفض سهيل ذلك ويطلب من علي أن يشطب رسول الله تلك ويقول
للنبي :

- لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك !!

ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ..

ووافق النبي ..

وكانت الصيغة التي كتبها علي بن أبي طالب :

- « هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو » ..

قبل النبي هذه الشروط الذي ظنها المسلمون مجحفة بهم، وبكرامتهم ..
وبلغ الغضب الذروة عندما تصادف أن أقبل واحد من مكة يعلن إسلامه وهو
أبو جندل بن سهيل بن عمرو .. وكان يجزر قيوده التي قيدها به أبوه، وهو
يطلب من المسلمين حمايته .. وكان والده حاضرا في مجلس الرسول فأخذ
يضرب ابنه وهو يطلب من النبي أن يعيده إلى مكة على حسب الاتفاقية !

وقد بلغ من غضب المسلمين أن اقترب عمر بن الخطاب من أبي جندل
وهو يظهر له سيفه، حتى ينتزعه من عمر ويضرب به والده .. ولكن
أبا جندل لم يفعل ذلك .. وأمر النبي أن يعود أبو جندل إلى مكة ..

بلغ الغضب الذروة في صفوف المسلمين .. فقد وجدوا في هذا المشهد
إهانة .. مسلم يستنجد بهم .. ولا يستطيعون حمايته، بل تبلغ وقاحة أبيه
أن يضربه أمامهم وهو يطالب النبي بتنفيذ الاتفاقية !

وقال النبي لأبى جندل:

- « يا أبا جندل اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا » ..

كم كان النبي عظيما .. وقد ضبط أعصابه، فلم يغلب على سلوكه هوى من غيظ أو غضب أو غيره، وإنما كان ينفذ ببصيرته الملهمة أمر الله .. وأمر الله غالب رضى الناس أم سخطوا، فالناس لا يعرفون تصارييف الأقدار .. والله غالب على أمره .. فما كان المسلمون يرونه ضعفا وهوانا واستسلاما، كان فتحا مبينا ..

ولكن الأفهام عجزت عن الفهم فى هذه اللحظة الحاسمة من التاريخ الإسلامى، حتى أن عمر بن الخطاب نفسه، قد ذهب إلى الصديق، وهو ضائق متبرم من هذه الاتفاقية ..

- أليس محمد برسول الله ؟

- بلى

- أولسنا على الحق !

- بلى

- أليسوا بالمشركين ؟

- بلى

- فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟

- الزم غرزك (رحلك) فانى أشهد أنه رسول الله ..

- وأنا أشهد أنه رسول الله .

ويذهب عمر إلى النبي عليه الصلاة والسلام، والغضب يعتصر نفسه.

- يا رسول الله أأست برسول الله ؟

- بلى

- ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟

- بلى

- فعلام نعطي الدنية في ديننا.

- أنا عبد الله ورسوله ، ولن أخالف أمره ولن يضيعنى ..

ومع كل هذا فإن ابن الخطاب لم يهدأ .. يعتصره القلق والألم ويذهب إلى الصديق .. صاحب الرسول العظيم .. الذى لو وزن إيمانه بإيمان نصف الأمة لرجح .. والذى سمى صديقا لإيمانه العميق بدعوة صاحبه .. وهو الذى ذهب إليه أهل مكة بعد أن أعلن الرسول إسرائه .. لعلمهم يرون فى هذا القول ما يرد أبا بكر عن الإسلام . فإذا بهذا المؤمن العظيم يقول لهم :

- أى بأس ؟ انى لأصدقته فيما هو أبعد من ذلك .. أصدقته فى خبر السماء يأتية فى غدوة وروحة .. إن كان قال فقد صدق ..

هذا الصديق العظيم يأتى إليه عمر ..

- « يا أبا بكر ألم يذكر لنا رسول الله أننا داخلون مكة ، طائفين بالبيت محلقين ومقصرين ! » .

ورد عليه الصديق :

- « ثكلتك أمك يا ابن الخطاب .. أذكر لنا أننا ندخله هذا العام ؟ انه رسول الله فاستمسك بغرزه حتى تموت » ..

وطلب النبى من أصحابه أن يتحرروا .. ويحلقوا ويحلوا .. ولكن المسلمين كان الغضب قد أعمى عيونهم فلم يسمعوا كلام الرسول .. ودخل النبى خيمته حزينا ، وكانت معه زوجته أم سلمة ، التى سألت النبى عما أحزنه .. وعلمت منه كيف أن المسلمين لم ينفذوا ما أمرهم به !!

وأشارت على النبي أن يخرج ولا يكلم أحدا، وينحر فديته، ويحلق رأسه.. وهم سوف يفعلون ما يفعل..

وخرج النبي وفعل ذلك.. صلى ونحر هديه.. وحلق رأسه للعمرة.. و.. بدأ المسلمون يفعلون ما فعله الرسول.. بعضهم حلق.. وبعضهم قصر شعره..

وقال رسول الله ﷺ:

- «يرحم الله المحلقين»..

قالوا:

- يا رسول الله والمقصرين.

- يرحم الله المحلقين.

- والمقصرين يا رسول الله.

- يرحم الله المحلقين.

- والمقصرين يا رسول الله.

- والمقصرين.

سألوا النبي: فلم ظهرت يا رسول الله المحلقين دون المقصرين؟

قال الرسول الكريم: لأنهم لم يشكوا في الله ورسوله.

عشرون يوما قضاها الرسول وأصحابه في الحديبية، ثم ركب النبي العظيم ناقته (القصواء) متجها بها صوب المدينة.. والمسلمون خلفه.. وفي الطريق نزل وحى السماء:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا ﴿٣﴾﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠﴾ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿١١﴾ [الفتح: ١١ إلى آخر السورة].

وتقدم عمر إلى الرسول قائلا:

- أوفتح يا رسول الله ؟

- نعم والذي نفسى بيده إنه لفتح .

وتناهى إلى سمع النبى قول أحدهم:

- ما هذا بفتح لقد صدونا عن البيت وعن هدينا .

فقال عليه الصلاة والسلام:

- « بئس الكلام . . بل هو أعظم الفتح ، لقد رضى المشركون أن يدفعوكم بالبراح عن بلادهم وسألوكم القضية ويربحوا إليكم فى الأمان . وقد رأوا منكم ما كرهوا ، وأظهركم الله عليهم وردكم الله سالمين مأجورين فهو أعظم الفتح . . » .

وأخذ النبى ﷺ يذكرهم بالمواقف التى مر بها المسلمون . . وكيف نجاهم الله منها . . قال لهم:

- « أنسيتم يوم أحد إذ تصعدون ولا تلوون على أحد ، وأنا أدعوكم فى أخراكم ؟ . . »

أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . . » .

وتذكر المسلمون كل هذه الأحداث . . وأيقنوا أن رسول الله ﷺ أبعد نظرا لأنه يرى بنور الله . .

وتمضى الأيام . . وتتكشف الأمور . . وما خفى عن المسلمين . .

لقد كان صلح الحديبية فتحاً ونصراً بكل المقاييس.. فمكة قد اعترفت بأن المسلمين أئداد لها.. بدليل أنها فاضتهم بعد أن كانت لا ترى حلاً لها مع المسلمين سوى السيف، وأن المسلم الذي يظل على دينه في مكة لم يخسر شيئاً فالإيمان في قلبه يلهمه السكينة والأمان.. والذي يتردد من المسلمين إلى مكة مزعزع العقيدة لا فائدة ترجى منه.. وكانت الهدنة فرصة لانتشار الإسلام في مختلف القبائل العربية بعد أن آمن المسلمون من هجوم قريش.. وقد شهد المسلمون بعد عامين فقط من هذا الصلح عندما انتهكت مكة الاتفاقية، ففتح المسلمون مكة نفسها بجيش هائل بلغ تعداده عشرة آلاف مقاتل.

والأيام تمضي.. ويعرف المسلمون أن هذا الصلح كان بالفعل فتحاً.. فهم يرون مثلاً أحد المسلمين يفر من مكة إلى المدينة وهو أبو بصير.. يعلن إسلامه للرسول، ويتمنى أن يعيش مع اخوانه المسلمين، ولكن قريش تأبى عليه ذلك، وتطلب من النبي أن يرده إلى مكة حسب الاتفاق، وترسل مكة من يأخذه رجل من بني عامر ومولى لهم.. ويوافق الرسول أن يعود الرجل إلى مكة حسب الاتفاقية.. والرجل يخاف أن يفتن في دينه. وفي الطريق إلى مكة يقتل أبو بصير لمبعوث مكة، ويفر المولى إلى النبي يخبره بالذي حدث من قتل أبي بصير لمبعوث مكة.. ويأتي الرجل يقول للنبي أنه قد وفي بعهده، أما هو فلن يرضى لنفسه أن يفتن في دينه، وتوجه إلى مكان على ساحل البحر الأحمر.. وما كاد يعلم قصته المستضعفون من المسلمين في مكة حتى هرعوا إليه.. وأصبحوا يهددون قوافل مكة التجارية المتجهة إلى الشام.. وهكذا شعرت مكة بأن هذا الشرط الذي اشترطته على النبي أن يرد إليها من أسلم لم يكن في صالح مكة، ولكن كان في صالح المسلمين..

والعجيب أن أهل مكة طلبوا من النبي أن يحميهم من الخارجين عليها من المسلمين أو الذين فروا مع أبي بصير وهددوا تجارتها إلى الشام.. وأنهم

لا يتمسكون بهذا الشرط أن يعيد إليهم من أسلم.. وطلبوا أن يقبلهم في المدينة حتى لا يتصرفوا إلا بأمر ويأمنوا خطرهم.. وهكذا كشف المسلمون بأنفسهم أن الشرط الذى تصوره امتهاناً لكرامتهم كان عبئاً على قریش وليس على المسلمين..

وإذا كان النبى فى هذه الاتفاقية، قد وافق على أن يرد من يسلم إلى أهل مكة، فإن هذا الشرط لم يطبقه النبى على المسلمات.. لأن المسلمة محرمة بحكم الإسلام على زوجها المشرك.. وقد حدث أن فرت أم كلثوم بنت عقبة ابن أبى معيط إلى المدينة بعد الهدنة، وحاول أخوها عمارة ردها إلى مكة إلا أن النبى رفض ذلك.. وأن هذا الشرط ينطبق على الذكور لا على الإناث.. فقد نزل قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مَهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُنَّ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ وَأَسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ أَلَا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكَمُ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [المتحنة: ١٠].

وهكذا عرف المسلمون أن هذا الصلح كان فتحاً.. وأن نبى الله لا ينطق عن الهوى.. وأنه يرى أعمق وأبعد مما يرون.. وأن شفافية النبى.. واتصاله بالملأ الأعلى قمة لا يصل إليها من البشر سواه..

فالإسلام بعد هذا الصلح قد سلك طريقه نحو الانتشار السريع فى شبه الجزيرة العربية، وأخذ شكله العالمى بأن أخذ النبى يرسل إلى ملوك العالم وقادته يدعوهم للإسلام.. لأن الإسلام لم ينزل إلى العرب وحدهم.. ولكن إلى الناس كافة.. وصدق جل علاه:

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ [الفتح: ٢٨].

عقب صلح الحديبية.. ابتدأ الناس فى المدينة يتأملون ما مر من أحداث.. وموقفهم من الرسول.. واتضح لهم بُعد نظر النبى الخاتم.. فهو لا ينطق عن الهوى.. والناقة عندما بركت عند الحديبية لم يكن ذلك إلا أمرا من الله.. والله وحده الذى يعرف الغيب وما تأتى به الأيام.. وما ظنوه هزيمة وانكسار، كان نصرا وفتحا مبينا..

ولم يكن غريبا أن يكون أقرب الناس إلى صدر النبى هو أبو بكر الصديق.. فإيمانه عميق راسخ كرسوخ الجبال.. لم يتردد لحظة فى تصديق كل ما جاء على لسان نبى الله.. ولا وهنت له عزيمة.. وهناك موقف أورده البخارى..

حدث يوما خلاف بين الصديق أبى بكر وعمر بن الخطاب، وذهب أبو بكر يشكو ذلك إلى النبى وكان النبى يجلس بين أصحابه، ورأى الصديق من بعيد وقد تغير وجهه.. حتى إذا ما جلس قال للنبى عليه الصلاة والسلام:

- يا رسول الله إنه كان بينى وبين ابن الخطاب شئ فأسرعت إليه ثم ندمت، فسألته أن يغفر لى، فأبى على فأقبلت إليك.

فقال النبى ﷺ:

- « يغفر الله لك يا أبا بكر.. يغفر الله لك يا أبا بكر.. يغفر الله لك يا أبا بكر.. »

ولكن الغضب لم يطل بابن الخطاب فذهب إلى صديقه أبى بكر فى منزله ولم يجده، فعلم أنه عند الرسول، فتوجه حيث النبى ﷺ. وتغير وجه النبى عندما رأى عمر، وخشى الصديق على صاحبه، فقال للنبى عليه الصلاة والسلام:

- يا رسول الله والله أنا كنت أظلم. والله أنا كنت أظلم..

وهنا يبدو جلال الصداقة بين أبى بكر وعمر، فأبو بكر يقول للنبي أنه كان هو المخطئ فى حق عمر..

وقال النبي عليه الصلاة والسلام:

- أن الله بعثنى إليكم فقلتم كذبت وقال أبو بكر صدق..

وآسانى بنفسه وماله.. فهل أنتم تاركون لى صاحبي.. فهل أنتم تاركون لى صاحبي..

* * *